أ.د. مصطفى البشير قط - جامعة محمد بوضياف بالمسيلة - الجزائر
bachir_ga07@yahoo.fr

مفهوم النثر في التراث النقدي المغاربي

The meaning of prose in the Magharebi's Critical Heritage

تاريخ الاستقبال / Date de soumission	تاريخ القبول/ Date d'acceptation
01.05.2019	02.06.2019

تاريخ النشر / Date de publication

20.11.2019

ملخص

يتناول هذا البحث بالدراسة اهتمام النقاد في المغرب العربي قديما بالنثر ودراستهم له الى جانب دراستهم للشعر، فقد حاولوا التنظير له؛ بتحديد مفهومه في مقابل مفهوم الشعر واستجلاء العناصر المكونة لبنيته، والمفاضلة بينه وبين الشعر، وفي هذا مايفند النظرة الخاطئة في الدراسات الحديثة التي مفادها اهتمام النقاد العرب القدامى بدراسة الشعر فقط و إهمالهم للنثر على اعتبار أن الشعر ديوان العرب الأول.

الكلمات المفتاحية

مفهوم، النثر، النقد، المغاربي.

Abstract

This study examines the interest of the critics in the Arab Maghreb during antiquity, and their studies about it along with poetry. They tried to create its structures by defining its concept compared to the concept of poetry and clarifying the elements of its structure, and differentiating between it and poetry. And this invalidates the wrong view of the modern studies, which states that the old Arab critics were interested in poetry only and neglected prose on the grounds that poetry is the first Arab Diwan.

key words

Concept, Prose, Criticism, Magharebi.

مقدمة

أجدني محتاجا بادئ ذي بدء إلى أن أدفع مقولة ملكت الأفئدة و الألباب على عموميتها، حتى بات الفكاك منها أشد على المرء من خرط القتاد، تلك المقولة هي أن "الشعر ديوان العرب" والحقيقة أن هذه المقولة إذا كانت تنطبق على العصر الجاهلي وحقبة من العصر الإسلامي لطبيعة ثقافتهما الشفاهية المناسبة للبداوة، فإنها لا تنطبق بدقة على ما تلاهما من عصور الأدب العربي التي غدا فيها النثر من ديوان العرب أيضا بعدما زاحم الشعر في مكانته التي تربع عليها لسنين طوال، على اعتبار أن النثر بطبيعته الكتابية يعد الوجه الأنسب للحضارة التي بدأت تلقي بظلالها على المجتمع العربي منذ بزوغ الإسلام.

ولقد ثار جدل بين الباحثين و الدارسين للأدب العربي حول أيهما أسبق في الظهور: الشعر أم النثر ؟ و لماذا ؟ وهو السؤال الذي سوف يفضي فيما بعد إلى سؤال آخر استغرق حقبة مديدة من تاريخ النقد العربي، كما استغرق جهد كثير من النقاد حول أيهما أفضل الشعر أم النثر ؟

وقد خاض النقاد المغاربة على غرار نظرائهم المشارقة في هذه القضية ؛ وفي هذا الصدد رأى عبد الكريم النهشلي (ت 403هـ)- وهو أستاذ ابن رشيق - أسبقية النثر على الشعر إذ ينسب إلى بعض العلماء بالعربية قوله: "أصل الكلام منثور ثم تعقبت العرب ذلك، واحتاجت إلى الغناء بأفعالها، وذكر سابقها ووقائعها، و تضمين مآثرها .."(01)، ثم أكد هذا الرأي ووافقه في موضع آخر فقال: "ولما رأت العرب المنثور يند عليهم، و يتفلت من أيديهم، ولم يكن لهم كتاب يتضمن أفعالهم تدبروا الأوزان والأعاريض، فأخرجوا الكلام أحسن مخرج بأساليب الغناء، فجاءهم مستويا، ورأوه باقيا على مر الأيام، فألفوا ذلك وسموه شعرا"(02).

وإلى عكس هذا الرأي ذهب بعض المستشرقين(03)، وشايعهم في ذلك الدكتور طه حسين الذي رأى أن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون عيشة بدائية أولية، والحياة الأولية لا تتطلب النثر الفني لأنه لغة العقل، بقدر ما تتطلب الشعر لأنه لغة العاطفة والخيال(04).

ومهما يكن من صحة هذا الرأي أو ذاك فقد أفضى التساؤل السابق حول أسبقية الشعر أم النثر إلى تساؤل آخر حول أيهما أفضل ؟

وإجابة عن هذا السؤال رأى عبد الكريم النهشلي المسيلي - أستاذ ابن رشيق - أفضلية الشعر على النثر لأنه "أبلغ البيانين، وأطول اللسانين، وأدب العرب المأثور، وديوان علمها المشهور"، مضيفا إلى ذلك أسبابا نفعية تتعلق بوظيفة الشعر إذ "ترتاح له القلوب، وتجذل

له النفوس، وتصغي إليه الأسماع، وتشحذ به الأذهان، وتحفظ به الآثار، وتقيد به الأخبار"(05).

ويذهب ابن رشيق المسيلي(ت46ه) مذهب أستاذه النهشلي في تفضيل الشعر على النثر، فيقول: "كلام العرب نوعان منظوم ومنثور، ولكل منها ثلاث طبقات ؛ جيدة، ومتوسطة، ورديئة فإذا اتفقت الطبقتان في القدر و تساوتا في القيمة، ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهرا في التسمية، لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة"(06).

ويبدو ابن رشيق منتصرا للشعر منذ بداية كتابه العمدة الذي بناه على فضل الشعر ومحاسنه وآدابه، وقد يكون السبب في ذلك أنه ألف كتابه دفاعا عن الشعر والشعراء في عصر غالبهم فيه الكتاب ونازعوهم مكانتهم، ومن ثم جاءت مادة كتابه كلها في هذا الموضوع، ولم يكن حديثه عن النثر إلا ما جاء بصدد المفاضلة بينه و بين الشعر، وإن كانت هذه المفاضلة في الحقيقة غير عادلة، لأنه أفاض في الحديث عن فضائل الشعر فجاء حديثه عنها مطنبا، بينما كان حديثه عن فضائل النثر مجرد إشارات عابرة.

وقد تناول ابن خلدون (ت 808ه) القضية من جهة أخرى فرأى أن حظ المغاربة من الأدب والبلاغة عموما ضعيف، فلهم مرتبة المشارقة والاندلسين في صناعتي الشعر والنثر، ولم ينبغ في الشعر والكتابة عندهم إلا القليل، كابن رشيق وابن شرف ويرى إن المغاربة "لم تزل طبقتهم في البلاغة حتى الآن مائلة إلى القصور، وأهل الأندلس اقرب منهم إلى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم، وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظما ونثرا"(07).

ويرجع ابن خلدون سبب هذا القصور إلى استيلاء لغة العجم على ألسنتهم، فكانت هذه أعرق في العجمة، وأبعد عن اللسان الأول، كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعلم"(08).

هذا عن مكانة النثر عند النقاد المغاربة بالقياس إلى الشعر،فماذا عن مفهومهم للنثر؟

إذا أردنا أن نتتبع مدلول كلمة "نثر" ومرادفاتها في موروثنا النقدي المغاربي، فإننا نجد النقاد يدرجون النثر تحت قسمة عامة هي الكلام الأدبي الذي يشمل الشعر والنثر، كما نص على ذلك عبد الكريم النهشلي بقوله: "أصل الكلام منثور"(09)، وابن رشيق بقوله: "كلام العرب نوعان: منظوم ومنثور"(10)، كما خصص ابن خلدون الفصل الرابع والأربعين من مقدمته الشهيرة للحديث عن انقسام الكلام إلى فني: النظم والنثر(11).

ولتحديد مفهوم النثر في التراث النقدي المغاربي لابد من تحديد مفهوم هذه اللفظة، وتتبع تطورها الدلالي في معجماتنا اللغوية، منذ كانت ذات دلالة مادية حسية إلى أن صارت مصطلحا لذلك الفن القولي الذي يقابل الشعر، ويبدو أن كلمة "نثر" ترجع في لغتنا إلى أصل مادي حسي هو "النثرة" أي: الشيء المتفرق، فقد ورد في لسان العرب: "النثر: نثرك الشيء بيدك ترمي به متفرقا مثل: نثر الجوز واللوز والسكر، وكذلك نثر الحب إذا بذر، وهو النثار... والنثار: فئات ما يتناثر حوالي الخوان من الخبز ونحو ذلك من كل شيئ"(12).

وفي القاموس المحيط: "نثر الشيء ينثره، وينثره نثرا، ونثارا: رماه متفرقا"(13). وهكذا نلاحظ مما سبق أن لفظة "نثر" تحمل دلالة الشيء المبعثر المتفرق المشتت، وهذا يعني عدم الانتظام، وعدم الانتظام من سمات "النثر" في الكلام الذي يقابله النظم (=الشعر) ثم أخذت اللفظة بعد ذلك دلالة معنوية بمعنى الكلام، إذ ورد في أساس البلاغة، "رأيته يناثره الدر إذا حاوره بكلام حسن، ورجل نثر: مهذار، ومذياع للأسرار، قال نصر بن سيار:

لقد علم الأقوام مني تحملي إذا النثر الثرثار قال فأهجرا(14) .

فالنثر هو الكلام المتفرق الذي لا جامع له من نظام تشبيها له بنثر المائدة، ونثر الحب ونثر اللؤلؤ والدر.

وهكذا، فقد أخذت اللفظة دلالة الكلام الكثير المتفرق ثم أصبحت مقصورة على الكلام الأدبي الفني الذي يرقى على مستوى الكلام اليومي العادي مضمونا وشكلا، وقد استعملها الأدباء والنقاد بهذا المفهوم، فهي تعني عندهم الكلام الفني غير المنظوم الذي يقابل الكلام الفني المنظوم وهو الشعر،فقد ذكر ابن رشيق أن "كلام العرب نوعان: منظوم ومنثور "ويقصد بالمنظوم: الشعر، وبالمنثور: النثر، ويقسم ابن البناء المراكشي (ت 721هـ) الأدب إلى قسمين: الشعر والنثر، ويقول في تعريف كل منهما: "وينقسم القول إلى موزون مقفى وهو المنظوم، وإلى غير ذلك وهو المنثور"(15)، فابن البناء المراكشي يقيم مفهومه للنثر على أساس "النقض" بمعنى أن النثر هو نقيض الشعر، فإذا كان الشعر هو الكلام الموزون المقفى، فإن النثر هو الكلام الخالي من الوزن والقافية، ومن ثم فهو يفرق بين الشعر والنثر بعنصري الوزن والقافية.

ولا يختلف مفهوم ابن خلدون للنثر عن مفهوم ابن البناء المراكشي، كما يظهر ذلك من خلال تقسيمه الكلام الأدبي إلى قسمين: شعر ونثر،إذ يقول :"اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى، ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية،وفي النثر وهو الكلام غير الموزون"(16)، ثم يقسمه من حيث الشكل الأدبي أو الأجناس النثرية إلى خطب ورسائل، ويقسمه من حيث اللفظ وصورة التعبير

إلى نثر مرسل، و نثر مسجوع، ويحاول المقاربة بين هذا النوع الأخير والشعر من حيث أن النثر قد غزته أساليب "الشعرية" فيقول: "وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الأسجاع والتزام التقفية... وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه، ولم يفترقا إلا في الوزن... وهذا الفن المنثور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر"(17).

ويرى ابن خلدون أننا نستطيع أن نميز بين الشعر والنثر بثلاثة أشياء:

أولا: من حيث الوزن

ويتضح هذا من خلال تعريفه لكلا الفنين،إذ يخص الشعر بالوزن، والنثر بعدم الوزن، بينما يجعل القافية شيئا مشتركا بين الفنين خاصة في النثر المسجع،وهو "الذي يؤتي به قطعا، ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعا"(18).

ثانيا: من حيث الأغراض

لأن لكل من هذين الفنين أغراض تختص به، فمن مذاهب الشعر النسيب والمديح والهجاء والرثاء، ومن مذاهب النثر الخطب والدعاء، وترغيب الجمهور وترهيبهم، والمخاطبات السلطانية، والمكاتبات الديوانية، يقول: "مثل النسيب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك"(19).

ثالثا: من حيث الأسلوب

فلكل من الفنين أسلوبه الذي يميزه عن الآخر،فأساليب الشعر يناسبها كما يقول: "اللوذعية وخلط الجد بالهزل والإطناب في الأوصاف، وضرب الأمثال، وكثرة التشبيهات والاستعارات"(20)، وأما الترسل فأكثر ما يمتاز به كما يقول: "إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا في الأقل النادر، وحيث ترسله الملكة إرسالا من غير تكلف له، ثم إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال، فإن المقامات مختلفة،ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب أو إيجاز أو حذف أو إثبات أو تصريح أو إشارة أو كناية أو استعارة"(21). ويرى أن استعمال أساليب الشعر في النثر مما جرى عليه كتاب عصره يعد شيئا مذموما (22).

ومما سبق نستنتج أن "النثر" في عرف النقاد المغاربة فن قولي غير منظوم يقابل الشعر بعده فنا قوليا منظوما، والفرق بين الشعر والنثر لا يكمن إلا في عنصر النظم (الوزن) فقط، وكأن هؤلاء النقاد لم يدركوا أن في النثر نوعا من النظم والإيقاع الناجم عن التشكيل اللغوي أولا، ومن ضروب المحسنات البديعية المستعملة ثانيا، وقد لاحظ طه حسين أن النقاد العرب القدامى عموما لم يفرقوا بين الشعر والنثر إلا في الوزن والقافية وأما فيما سوى ذلك فإنهما متساويان ينطبق على أحدهما ما ينطبق على الآخر،فقال عن هؤلاء النقاد بأنهم "لم يلحظوا أي فارق بين ماهو (شعر) وماهو(خطابة)،وكل ما يفرق عندهم بين الشعر

والنثر إنما هو الوزن والقافية، ولما كان لهذين علم خاص هو العروض، فقد أصبح النثر والشعر عندهم متساويي الحظ من (العبارة) فما يقولونه عن أحدهما يقولونه على الآخر، وقواعد البلاغة التي يطبقونها على النثر تنطبق عندهم على الشعر"(23)، ومعنى هذا أن ملمح "الأدبية" متوفر في الشعر والنثر على السواء وإن كان بدرجة متفاوتة على عكس ما ذهب إليه بعض الباحثين المعاصرين من أن النقاد العرب إذا "قابلوا بين الشعر والنثر فإنما على أساس أن الأول كلام أدبي،وأن الثاني كلام غفل ليست له خصائص فنية"(24).

وهكذا لا نكاد نجد فرقا في قواعد البلاغة بين الشعر والنثر عند النقاد المغاربة والمشارقة على السواء، فما ينطبق على هذا ينطبق على ذاك يظهر ذلك واضحا جليا من خلال الشواهد والأمثلة التي يسوقونها على آرائهم من الشعر والنثر على حد سواء، فقد كان هؤلاء النقاد يتحركون ضمن مفهوم البلاغة بما هي قوانين كلية عابرة لأجناس الكلام، ومقيمة حدودا تقسيمة على أساس المقابلة بين كلام بليغ وغير بليغ، سواء في الشعر أو النثر، فقد كانت الشعرية تبدو صفحة للشعر دون سواه قبل أن تشمل النثر الفني أيضا الذي لم يعد مقصورا على وظيفة الإبلاغ، وحقق من وجوه التجمل في المقامات والرسائل والفقر الوصفية ما نزله منزلة الفن حتى لكأنه كان يمعن في محاصرة الشعر باستعارة زيه أو أن الذي كان يحصل هو العكس؛ رد النثر إلى الشعر بإغراقه فيه وتطويقه بوسائله، وهو ما عبر عنه التوحيدي في تعريف أحسن الكلام وتنزيله " بين نظم كأنه نثر، ونثر كأنه نظم"(25).

وهي نتيجة استخلصوها من واقع الحال، إذ أن الأساليب التي كان يتبعها الناثرون في صياغة خطبهم ورسائلهم هي تلك الأساليب الشعرية والمتمثلة خصوصا في الأسجاع الكثيرة، وفي المحسنات اللفظية والمعنوية الأخرى كالجناس والطباق والمقابلة والتورية وغيرها كما أشار إلى ذلك ابن خلدون.

ولعل هذا يعد سببا من الأسباب التي جعلت النقاد لا يهتمون بالتنظير للنثر الفني لأنهم اعتبروا "البلاغة علما كليا يشمل الشعر والنثر"(26)، ومن ثم رأوا ألا غنى من تكرار الحديث، وبذلك لم ترق محاولاتهم إلى مستوى وضع نظرية للنثر على غرار النظرية التي وضعوها للشعر، إذ لم يستطيعوا حتى أن يضعوا حدا واضحا دقيقا للنثر يبين ماهيته وعناصره كما فعلوا في الشعر،وربما يرجع ذلك إلى أن العرب أمة شعر أولا،وأمة كتابة ثانيا كما قيل، ومن ثم أعطوا الأولوية للتنظير للشعر، وكأن ذلك يغنيهم عن التنظير للنثر.

الهوامش

1. الممتع في صنعة الشعر: للنهشلي، تحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1983، ص: 11.
2. المصدر نفسه، ص: 18.
3. ينظر النثر الفني في القرن الرابع الهجري: د. زكي مبارك، المكتبة العصرية، لبنان، د.ت، 37/1، وما بعدها.
4. ينظر من تاريخ الأدب العربي: طه حسين، دار العلم للملايين، بيروت، ط. 1982،4، 414/2، ومن حديث الشعر والنثر: لطه حسين، دار المعارف، مصر، ط10، 1969،ص: 22-24، وينظر رأي مخالف في كتاب: الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي: لمحمد هاشم عطية، دار الفكر العربي، دون مكان، 1997، ص: 58-66.
5. الممتع في صنعة الشعر: للنهشلي، ص: 11.
6. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: لابن رشيق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط1981،5، 19/1.
7. مقدمة ابن خلدون،دار الرائد العربي، بيروت، ط5، 1982، ص: 565.
8. المصدر نفسه، ص:565.
9. الممتع في صنعه الشعر: للنهشلي، ص:11.
10. العمدة: لابن رشيق،19/1.
11. مقدمة ابن خلدون، ص: 566.
12. لسان العرب المحيط: لابن منظور إعداد وتصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت، د.ت، مادة (نثر).
13. القاموس المحيط: للفيروز آبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 ،1999، 1 ،مادة (نثر).
14. أساس البلاغة: للزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة بيروت،دون تاريخ، مادة (نثر).
15. ابن البناء المراكشي: الروض المريع في صناعة البديع، تحقيق رضوان بن شقرون، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985 ص: 81.
16. مقدمة ابن خلدون، ص: 566.
17. ينظر مقدمة ابن خلدون، ص: 567.
18. مقدمة ابن خلدون، ص: 567.
19. مقدمة ابن خلدون، ص: 567.
20. مقدمة ابن خلدون، ص: 567-568.

21. مقدمة ابن خلدون، ص: 568.

22. ينظر مقدمة ابن خلدون، ص: 568.

23. البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر: د. طه حسين، مقدمة لكتاب نقد النثر المنسوب خطأ إلى قدامة بن جعفر، المكتبة العلمية بيروت، 1980، ص: 16.

24. مفهوم الأدبية في التراث النقدي إلى نهاية القرن الرابع الهجري: توفيق الزيدي، سراس للنشر، تونس، 1985، ص: 98.

25. الإمتاع والمؤانسة: أبو حيان التوحيدي، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ. 145/2.

26. البلاغة ومقولة الجنس الأدبي: د/محمد مشبال، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد11، المجلد30، سبتمبر 2001، ص: 6.